ترجمات | قسم الدراسات الدينية | 01 أغسطس 2018

الإسلام والمسيحيّة

جون هيك

ترجمة: ريجان يوسف إبراهيم

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2018

All rights reserved © 2018

الإسـلام والمسيحيّـة

المؤلّف: **جون هيك** (John HICK)
تعريب: **ريجان يوسف إبراهيم** (مصر)

تقديم (بقلم المترجمة)

جون هَروود هيك (20 يناير 1922 بالإنجليزية John Harwood Hick) أستاذ وثيولوجي وفيلسوف في الدين. قدّم مساهمات في الثيولوجيا الدينية عن الكريستولوجيا والإسكاتولوجيا والثيوديسيا، وفي فلسفة الدين قدّم مساهمات في إبستمولوجيا الدين والتعدّدية الدينية.

يعد هيك أحد أهمّ، إن لم يكن ببساطة أهمّ، فيلسوف للدين في القرن العشرين بتأييده للتعدّدية الدينية، والتي تختلف جذريا عن التعاليم المسيحية التقليدية التي اعتنقها في شبابه.

تُرجمت كتب جون هيك إلى 17 لغة، وكتب عنه وعن كتبه 20 كتابا بعدّة لغات منها الصينية واليابانية والعربية. وله كذلك عدّة محاضرات ومقالات.

مؤلّفات هيك الرئيسة:

Faith and Knowledge, (1st ed. 1957, 2nd ed. 1966)

Evil and the God of Love, (reissued 2007)

Death and the Eternal Life (1st ed. 1976)

An Interpretation of Religion (reissued 2004)

The Metaphor of God Incarnate (2nd ed. 2005)

الإسلام والمسيحية:

هي محاضرة ألقاها جون هيك في كلّية الفلسفة الإيرانية بطهران سنة 200. وقد أكّد جون هيك أنّ المسيحية والإسلام ديانتان تعتمدان على الوحي؛ أي إنّهما ديانتا كتاب، وقال إنّ القرآن المقدّس أوحي للنبي محمّد، والكتاب المقدّس أوحي عبر عدّة كتّاب، وأنّ الكتابين يعبّران عن اللوح المحفوظ المشار إليه في القرآن.

الإسلام والمسيحيّة

بداية أودّ أن أعبّر عن مدى سعادتي بكوني هنا في طهران، وقد أتيحت لي الفرصة للقاء علماء المسلمين ومحاولة المساهمة بشيء في الحوار الجاري بين دينيْنا.

واسمحوا لي أوّلا، أن أشير إلى موقفي الخاصّ من المسيحية، التي تحتوي على العديد من الاختلافات كما هو الحال في العالم الإسلامي. فأنا رجل دين من الكنيسة البروتستانتية المتّحدة، وهو جزء صغير من أقسام المسيحية التي انفصلت عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في القرن السادس عشر للميلاد، وهكذا فإنّني أنتمي إلى نهاية سلسلة من المواقف الإصلاحية. ومن هذا المنظور أتكلّم، ولكنّني لست ممثّلا رسميا لتلك الكنيسة، فأنا هنا بصفتي الشخصيّة.

إنّ الإسلام والمسيحية تستندان إلى الوحي، وكلاهما من الأديان الكتابية، بمعنى أنّ القرآن الذي بلّغه النبي محمّد والكتاب المقدّس الذي كشف عنه عدد من الكُتّاب المختلفين، وكلاهما مع الكتب المقدّسة الأخرى، تعتبر بمجموعها هي الكتاب المحفوظ المشار إليه عدّة مرّات في القرآن.

الاعتقاد الإسلامي التقليدي، كما أفهمه هو أنّ القرآن قد كُشف للنبي على مدى فترة عشرين عاما من خلال الملاك جبرائيل، وأنّ التوراة والعهد الجديد هما أيضا من الله، ولكنّ النصوص أصبحت تالفة في مختلف النقاط التي تختلف فيها عن القرآن. في حالة العهد الجديد مثال بارز على ادعاء التشويه هو الحساب التوراتي لوفاة يسوع على الصليب.

ومن وجهة نظر مسيحيّة حديثة، فإنّ الوضع أكثر تعقيدا من ذلك. أوّلا، كثيرا ما يقال من قبل اللاهوتيين المسيحيّين أنّ وحينا، ليس في كتاب، ولكن في شخص يسوع. ومع ذلك، فنحن لا نعرف يسوع إلاّ من خلال العهد الجديد، ولا سيّما الأناجيل الأربعة. لقرون عديدة، حتّى في غضون حوالي المائة وخمسين عاما الماضية، كان يفترض المسيحيون أنّ به حسابات حياة يسوع وتعاليمه موثّقة تاريخياً. ولكنّ الدراسة التاريخية الحديثة للعهد الجديد قد أدّت إلى الاستنتاج المتّفق عليه عموما بأنّ الإنجيل المبكّر، المنسوب إلى متّى، كُتب حوالي 70 م؛ أي بعد أربعين عاما من وقت يسوع؛ وأنّ مرقس ولوقا كُتبا في الثمانينيات [من القرن الأوّل الميلادي]، وذلك باستخدام متّى كمصدر رئيس لهما مع مصدر مشترك آخر محتمل، ولكنّه متنازع عليه، يسمّى Q، ومصادر منفصلة أخرى خاصّة بهم؛ وأنّ إنجيل يوحنا كُتب في نهاية القرن [الأوّل]، أي بعد سبعين سنة أو أكثر من وقت يسوع ولم يُكتب أيّ منها من قِبل شاهد عيان على حياة يسوع، ولكنّهم ينقلون القصص والأقوال التي تردّدت، داخل المجتمع المسيحي في وقت مبكّر، والكُتّاب مختلفون وفقاً للمصالح ووجهات النظر.

والنتيجة هي أنّ هناك اليوم مناقشة غير حاسمة لا نهاية لها وخلافا حول ما إذا كان هذا أو ذاك القول والعمل المنسوب إلى يسوع في الأناجيل هل هو حقيقة تاريخية أم لا؟.

من وجهة نظر المعرفة المسيحية الحديثة للعهد الجديد، فإنّه يحتوي فعلا أقوالا وقصصا للمسيح مشكوك فيها ومنسوبة إلى يسوع، ولكن ليس لأنّ النصّ الأصلي معصوم وأصبح في وقت لاحق معطوبا، ولكن بسبب طبيعة الأناجيل التي قد كُتبت بعد اثنين أو ثلاثة أجيال بعد الحدث ومن قبل كُتّاب مختلفين على مدى فترة حوالي ثلاثين عاما، وفي هذا العصر الذي كان غير معروف فيه المفهوم الحديث من دقّة السيرة الذاتية. هذه هي نتيجة الدراسة التاريخية للأناجيل، وأعتقد أنّ استخدام ما يعادل في الإسلام من طريقة تاريخية للتمييز بين المواد الأكثر والأقلّ موثوقية هو في دراسة الأحاديث النبويّة. ولكن الفارق الأساسي بين الإسلام والمسيحية في هذا المجال هو أنّه في حين أنّ الكتاب المقدّس والقرآن من الكتب المقدّسة، ففي المسيحية هناك مساحة للمناقشة وتنوّع الرأي حول النصّ الصحيح، في حين أنّه لا يوجد في الإسلام عدم يقين بشأن النصّ نفسه، ولكن فقط هناك مساحة للمناقشة وتنوّع الرأي في تفسيره.

ومع ذلك لقرون عديدة، كما قلت، كان المسيحيّون يفترضون عموما، كما قال الواعظ الإنجيلي الشهير بيلي غراهام، "الكتاب المقدّس هو كتاب كتبه الله من خلال ستّين أميناً". ولا تزال هناك مجموعة كبيرة وقويّة من المسيحيين الذين يلتزمون بهذا الرأي، ولا سيما في إفريقيا وفي الجزء الجنوبي من الولايات المتحدة الأمريكية. ولكن بين العلماء المسيحيين أصبح هناك اعتراف متزايد بالمساهمة البشرية في تكوين الكتب المقدّسة، الأناجيل الأربعة، وكذلك رسائل بولس ووثائق العهد الجديد التي تعكس الأوضاع الثقافية والسياسية التي كتبوا فيها، والأفكار والممارسات الدينية لليهودية في ذلك الوقت ووجهة نظر العالم المفترضة في القرن الأوّل الميلادي والثقافة، والمخاوف الفردية للكتّاب والمجتمعات المسيحية المحلّية الخاصّة بهم. وهذا أمر، كما أقترح، متوقّع. فلكي يكون الوحي الإلهي موجّها إلى البشرية، لا بدّ أن يكون مفهوما للبشر. لهذا يجب أن يأتي من خلال العقول البشرية ويجب أن يُعبّر عنه بلغة إنسانية ومن حيث العالم المفاهيمي المتجسّد في تلك اللغة، وجميعها منتجات ثقافة معيّنة في جزء معيّن من الأرض عند نقطة معيّنة في تاريخ البشرية. هذا لا يعني أنّ العملية ليست وحياً حقيقياً، ولكن الوحي لابدّ أن يكون من خلال البشر في كلّ خصوصيّاتهم التاريخية.

وعلاوة على ذلك، في الكتاب المقدّس هناك مفهومان مختلفان جدّا وغير متوافقيْن عن الله وإرادة الله للبشرية. تخبرنا التوراة أنّه عندما خرج بنو إسرائيل من مصر لاحتلال أرض كنعان، وكانوا يقاتلون قبيلة الأمُوريّين، «ربّ ألقى حجارة كبيرة من السماء عليهم...» (يشوع 10: 11)، ثم إنّ الله جعل الشمس تقف لمدّة يوم كامل حتى يكون لديهم وقت أطول لذبح الأمّوريّين (يشوع 10: 15)؛ وفي وقت لاحق، عندما

كانوا يقاتلون قبيلة أميليك، أمر الله الإسرائيليين، «اذهبوا الآن لتعذيب أماليك، وتدمير كلّ ما لديهم تماماً؛ لا تنجيهم، بل تقتل كلاّ من الرجل والمرأة، الرضيع والرضّاعة، الثور والأغنام، الإبل والحمار» (صموئيل 15: 3). هذه صورة إله عنيف محارب قَبَليّ. ولكن هناك كتب أخرى من الكتب المقدّسة العبريّة التي يعبّر عنها مفهوم مختلف تماما لله، كإله عالمي كريم ورحيم بالجميع وليس فقط لإسرائيل. كما يقول أحد المزامير: «لأنّ السماوات مرتفعة فوق الأرض، عظيم جدا هو حبّه الثابت تجاه كل من يخافه. فبالنسبة إلى الشرق من الغرب، حتى الآن يزيل مخالفاتنا منّا» (مزمور 103: 11-12).

وتمشيا مع هذا المفهوم اليهودي الأخير من الله، في تعاليم يسوع الله هو إله الحبّ والرحمة، ويجب أن تحاكي هذه الفضائل على الأرض. من تعاليمه «سمعتم أنّه قيل: تحبّ قريبك وتبغض عدوّك، ولكن أقول لكم، أحبّوا أعداءكم وباركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم، وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم، حتى يتسنّى لكم أن تكونوا من أبناء أبيكم الذي هو في السماء، فإنّه يُشرق شمسه على الأشرار والصالحين، ويرسل المطر على الأبرار والظالمين» (إنجيل متّى 5: 43-45). مرّة أخرى، في وقت لاحق في العهد الجديد نقرأ، «الله هو محبّة ... الذي لا يحبّ أخاه الذي رأى، لا يمكن أن يحبّ الله الذي لم ير» (يوحنّا 4: 7، 20).

نتيجة لهذا التنوّع الواسع داخل الكتاب المقدّس فإنّه يجب علينا جميعاً الاختيار، إمّا بوعي أو بدون وعي لما نؤمن به. بعض اليهود وبعض المسيحيين يعبّرون عن مفاهيم العنف والانتقام، وغيرها ولكن أكبر عدد اليوم لديهم مفهوم مختلف جدّا عن الله: إنّه محبّة.

الآن أقترح أنّ المبدأ العام للإصلاح الإنساني يجب أن ينطبق على تكوين القرآن. الذي هو في الحقيقة لغة بشرية معيّنة ألا وهي العربية، والذي هو قطيعة النبي الحاسمة مع الكفر والشرك بالله؛ وهو يعكس قصّة حياة النبي نفسه، وتاريخ المجتمع الإسلامي الجديد في مكّة المكرّمة، والهجرة، ومعارك المجتمع ضدّ أولئك الذين كانوا يحاولون تدمير الإيمان الجديد، وعودة في وقت لاحق في انتصار لمكّة، والحياة الاجتماعية والمجتمع الجديد، وكلّ هذا على خلفيّة الروح الثقافية الأساسية للجزيرة العربية في ذلك الوقت.

إلاّ أنّ هناك اختلافا مهمّا بين القرآن والأناجيل المسيحية؛ ففي الجزيرة العربية التي ولد فيها النبي كان الهيكل التجاري والسياسي كلّه في مكّة المكرّمة مرتبطا مع الشرك القائم. تعتمد الأرستقراطية التجارية الحاكمة على سيطرتها على المكان المقدّس، الكعبة، مع طقوس الحجّ المربحة والتجارة التي اجتذبت للمكان. وفي هذه الحالة، كان للوحي على النبّي حتما آثارٌ سياسية واقتصادية هدّدت بشكل عميق النظام القائم؛ ولأنّ الرسالة التي جلبها تتطلّب إصلاحا اجتماعيا جذريا، فقد قاومته الطبقة الحاكمة المكّيّة بشدّة وأحيانا بمقاومة عنيفة، إلى النقطة التي اضطرّ فيها المجتمع المسلم الصغير حينئذ إلى المغادرة، ومن هنا كانت الهجرة إلى المدينة. وهناك أقاموا دولة إسلامية للحكم بتعاليم القرآن الذي يحتوي على قدر كبير من التعاليم الاجتماعية

حول أمور مثل التقيّد بالمعاهدات والتجارة والإقراض والاقتراض والزواج والطلاق والعقاب على الجرائم وقواعد للحرب العادلة وسير الحرب، ومسائل أخرى.

وعلى النقيض من ذلك، لا تحتوي الأناجيل على أيّ تعليم اجتماعي بمعنى القواعد والقوانين المتعلّقة بحكم المجتمع. ليس لدى يسوع أيّة سلطة سياسية أو مسؤولية. عاش في بلد محتلّ تحت حكم أجنبي، حكم روما. ويبدو أنّه كان يتوقّع أن تأتي نهاية هذا العصر قريبا، في غضون عمر سامعيه. ومن ثمّ، فإنّ المجتمع القائم سينتهي ويسود حكم الله على الأرض. الكنيسة المبّكرة، كما هو مبيّن في رسائل بولس، كرّست هذا الاعتقاد، ولكنّنا نرى أنّ هذا الاعتقاد قد تلاشى تدريجيا على مدى عقود، وكان على المجتمع المسيحي أن يتأقلم مع الحياة في بيئة عداء مستمرّة ومتزايدة. ولكن في تعاليم يسوع كان من المفترض نهاية وشيكة للدهر يعني أنّه لم يكن في أفقه من المخاوف لصياغة قوانين لدولة وطنية منظّمة بشكل مستقلّ. مبادئ العدالة الاجتماعية والسلام هي بالتأكيد ضمنية في تعليمه الأخلاقي الأساسي، والعديد من الكنائس اليوم تحاول تطبيقها على المجتمع، ولكن في تعاليم يسوع نفسها ظلّت ضمنيّة. وبعد أربعة قرون فقط، وبعد أن أصبحت المسيحية دين الإمبراطورية الرومانية، وأصبحت الكنيسة والدولة الآن واحدة تقريبا، أصبح الأساقفة والأبناء المسيحيّون سياسيين يشاركون في حكم المجتمع.

السؤال المهمّ الذي يطرحه الدينان هو ما إذا كانت الأعراف والممارسات الاجتماعية المسيحية في الإمبراطورية الرومانية، والإسلام في العقود الأولى بعد الهجرة، هي إلهية صالحة في كل زمان ومكان، أو كانت خصّيصا لتلك الحالات التاريخية. في حالة المسيحية، بعض القوانين والمعايير الاجتماعية التي وضعت في العصر الروماني والقرون اللاحقة تعتبر ذات صلة وصحيحة اليوم في حين أنّ بعض القوانين ليست كذلك. وقد تمّ التخلي عن العديد من تلك القوانين القديمة، لأنّهم يفترضون مسبقا ثقافة وحالة من المعرفة البشرية التي تمّ حلها. لقرون عديدة اضطهدتْ الكنائسُ اليهودَ وقَتَلَتْهُمْ، وكان هناك وقت عاشوا فيه كثيراً في أمان تحت الحكم الإسلامي. مرّة أخرى، لقرون عديدة كان المسيحيون يعتقدون في السحر، والآلاف من النساء اللاّتي عُرفن بالساحرات اضطهدن وقُتلت الكثيرات. وهذا الفعل يعتبر جريمة قتل اليوم. في وقت ما كان الناس الذين شكّكوا في أيّ من المذاهب المعمول بها في الكنيسة وُصفوا بالزنادقة وحُرق العديد منهم أو شُنق. وهذا يعدّ أيضا جريمة قتل اليوم. فعلى مدى قرنين ونصف قرن، وإلى حدود حركة منع [الرقّ] التي بدأت في أواخر القرن الثامن عشر، فإنّ المجتمع البريطاني والأمريكي، الذي أيّدته الكنائس، اعتبر العبوديّةَ أمرا إلهيّا. مرّة أخرى، في السنوات الأخيرة، دافعت الكنائس المسيحية في التقليد الهولندي الإصلاحي المهيمن عن الميز العنصري في جنوب أفريقيا على أسس الكتاب المقدّس. إنّ كلّ هذه الممارسات تتنافى مع تعاليم يسوع الأخلاقية عن تقدير الآخرين كما تقدّر نفسك وتعكس الحب الإلهي والغفران في التعامل مع الآخرين.

وهكذا داخل المسيحية اليوم، باستثناء جزء من الجناح الكبير من المحافظين، نميّز بين مبادئ يسوع الأخلاقية الخاصة، ومن ناحية أخرى القواعد الخاطئة والمتغيّرة التي اعتمدتها المجتمعات المسيحية المختلفة في أماكن مختلفة وفي أوقات مختلفة. وسأطرح السؤال عمّا إذا كان التمييز الأساسي نفسه قد يكون في الإسلام. وهذا سيكون وفقا للعلماء المسلمين الذين يميّزون بين الحقائق الدينية الأساسية التي كشفت في السور المكية في وقت مبكّر، والتي هي صالحة وسليمة بصورة مطلقة، والتطوّر اللاحق للتشريعات الاجتماعية للمجتمع المسلم في المدينة وفي الفترة المكّية الثانية، وهي حالة ثقافية وسياسية وتاريخية لم تعد موجودة اليوم. كما أنّ ذلك يتّفق مع تطوّر فهمنا البشري لما تعنيه العدالة والإنصاف، لأنّني أفهم أنّ العديد من المفكّرين المسلمين، الذين يدينون ممارسة العبودية في الماضي، يؤكّدون الآن أنّ ذلك كان محدّدا بعصر معيّن، وأنّ إلغائه، الذي لم يكن ممكنا، أصبح في الوقت المناسب صحيحاً. إنّ السمة الأبدية مقابل القدرة على التكيّف المستمر للممارسات الاجتماعية السابقة هي، كما أعلم، مسألة مثيرة للجدل داخل الإسلام، لكنّ انطباعي هو أنّ عناصر الشريعة مثل الرجم حتى الموت لشخص في حالة الزنا (لم يتمّ العثور عليه في القرآن في حدّ ذاته)، في كتب التشريع في إيران، ولكّنه لا يمارس في الواقع. إنّ لقطع يد السارق أساسا في القرآن (المائدة 5: 38). وهذا ما يمارس في المملكة العربية السعودية، وهو موجود في كتب الشريعة في بعض البلدان الإسلامية الأخرى، بما في ذلك إيران، على الرغم من أنّنا اليوم ندرك أنّه نادر جدا. كانت ممارسة من قبل الإسلام مقبولة في وقت النبي، لكنّها مستمدة من وقت ومجتمع لم تكن فيه أنظمة السجن موجودة كما هو الحال اليوم، حيث العقوبات متدرّجة ممكنة عن طريق أطول أحكام السجن أو أقصرها. وأتصوّر أنّه في الوقت المناسب، ومع تطوّر النظم القانونية، ستُترك هذه الممارسات القاسية للغاية.

على أيّ حال، يبدو لي كغير مسلم قام ببعض الدراسات غير الأكاديميّة للقرآن، أنّ أقوى رسالة من الله هي النعمة والرحمة. كما تعلمون، كلّ سورة واحدة تستدعي اسم الله الرحمن الرحيم، كريم ورحيم، وهناك في العديد من التصريحات العديدة مثل أنّ «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ» (الأنفال 8: 28)، وأوامر مثل «وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ» (فصّلت 41: 34)، أو «إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (النساء 4: 98) فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا» (النساء 4: 98)، أو «وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ» (هود 11: 90)، «إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» (البقرة 2: 54)، مع آيات أخرى كثيرة جدا من نفس النوع. الله هو كُلّي الرحمة وكُلّي القدرة؛ ألا ينبغي أن تنعكس هذه الرسالة الأساسية لنعمة الله ورحمته في قواعد وقوانين المجتمعات الإسلامية؟

نفس الرسالة داخل المسيحية، وهي محبّة الله التي لا حدود لها، ونفس الفشل في التطبيق في الحالتين. ولتوضيح العديد من المواقف في سلوك البلدان المسيحية على مرّ التاريخ: لا يوجد اليوم أيّ مسيحي يقبل تدمير العراق أو معاملة السجناء في سجن أبو غريب في بغداد أو في السجن الأمريكي في خليج غونتانامو أو في الدعم الأمريكي، المشجّع بقوّة من قبل الرئيس بوش الأصولي الكبير في الولايات المتحدة ولا المعاملة الإسرائيلية للفلسطينيين. ومع ذلك، فإنّ هذه المواقف في كلا الديانتين، قد تمّ الدفاع عنها بالكتّاب المقدس أو على أسس قرآنية، لذا في رأيي أنّنا جميعا بحاجة إلى أن نكون أكثر انفتاحاً على رؤى أخلاقية جديدة مع تطوّر حالة المجتمع البشري.

إنّ مصطلح «الأصولية» يستخدم أحيانا لوصف حالة ذهنية، وأحيانا وسيلة لفهم الكتب المقدّسة، وكثيرا ما يعبّر عن اقتران الاثنين معا كحالة ذهنية. فالمتعصّب، يسعى باستمرار لفرض نفسه على الآخرين، ويميل بسهولة إلى العنف اللفظي وأحيانا الجسدي. هذه العقلية يمكن العثور عليها في كلّ واحدة من الديانات العالمية الكبيرة، وأودّ أيضا أن أضيف لهذا المعنى ما يلي: في المجتمعات العلمانية البحتة، يمكن أن يكون هناك ملحدون ليس لديهم الكتب المقدّسة وبالرغم من ذلك فهم أصوليّون.

كطريقة لفهم الكتاب المقدّس، تكون الأصولية غير نقدية، مع عدم مراعاة الظروف الإنسانيّة التي يحدث فيها الوحي، ودائما تقوم باختيار بعض الآيات الكتابية حجّية في حين تتجاهل النصوص الأخرى التي تتعارض معها. داخل المسيحية نجد مصطلح «الأصولية المسيحية»، بمعنى أولئك الأصوليين في الإدراك، وأنا شخصيا أفضّل مصطلحا مكافئا هو «الأصولية الإسلامية»، عندما ينطبق، على مصطلح «الإسلاميين» الذي يُستخدم اليوم على نطاق واسع في الغرب. داخل المسيحية لا ندعوهم «الأصوليّين المسيحيّين» أو «المسيحيين». وبالمثل أودّ أن أتحدّث عن الأصوليّين المسلمين أكثر من الإسلاميّين، لأنّ مصطلح «الإسلاميّين»، ينطبق على المتطرّفين العنيفين الذين يبرّرون نشاطهم باستخدام انتقائي للقرآن، يوحون بأنّهم يمثّلون الإسلام الأصيل. أستطيع أن أفهم كيف أنّ الشعوب المضطهدة، سواء في فلسطين أو في العراق أو في أيّ مكان آخر، واجهت قوّة النيران الساحقة للدبّابات وطائرات الهليكوبتر الحربية، وتلجأ إلى أشكال المقاومة اليائسة المتاحة لها، بما في ذلك التفجير الانتحاري، الذي مارسه أوّلا الطيّارون الكاميكاز اليابانيّون في الحرب العالمية الثانية. ولكن عندما يتوقّف هذا الشكل من أشكال الحرب ويصبح شكلا من أشكال الإرهاب يستهدف الرجال والنساء والأطفال الأبرياء لا أستطيع أن أرى أنّه يمكن أن يكون مبرَّرا أخلاقيا ودينيّا. وقد قتل ابن صديق لي في تفجيرات بالي في عام 2002، والتي نسبت إلى المتطرّفين «الإسلاميين». وكان هو وأصدقاؤه من السيّاح المدنيّين الأبرياء غير السياسيين. وكان قتلهم تعبيرا عن معارضة عامّة للغرب، كان في ذهني أبعد من التبرير. وأود أن أقول نفس القول حينما يتعلّق الأمر بالقصف

العشوائي وقصف المدن التي يقتل فيها عدد كبير من المدنيين من الرجال والنساء والأطفال على يد جيوش الدول المسيحية.

واسمحوا لي الآن أن أنتقل إلى المسائل اللاهوتية. أوّلا، فيما يتعلّق بيسوع، فإنّ عقيدة زيان (Xian) الرسمية، التي أنشئت أخيرا في مجمع خلقيدونية في 451 م، هو أنّ يسوع المسيح كان كلّ من الله والإنسان، وجود طبيعتين، واحد إلهي والآخر بشري. هذا المذهب ينطوي على مزيد من عقيدة الثالوث، مع يسوع هو الله الابن، والأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي، المتجسّد. هذا هو الاعتقاد المسيحي الأرثوذكسي منذ ذلك الحين. ويتّفق مع تلك العقيدة الموجودة في الماضي، وبالفعل اليوم داخل الكنيسة الكاثوليكية، فإنّ الذين شكّكوا في ذلك في كثير من الأحيان يتعرّضون للاضطهاد كزنادقة. في العقود الأخيرة، وفي ضوء الدراسة التاريخية الحديثة للعهد الجديد والتاريخ المبكّر للكنيسة، كان هناك قدر كبير من التفكير الجديد وإعادة الفهم. ومن المتّفق عليه الآن على نطاق واسع بين علماء العهد الجديد أنّ يسوع نفسه، الفرد التاريخي، لم يفكّر في نفسه على أنّه إلهي ولم يعلم أيّ شيء عن عقيدة التجسّد التي ظهرت في وقت لاحق. أقوال العهد الجديد الذي يبدو فيها يسوع يدّعي الألوهية، مثل «الذي رأى لي رأى الأب»، و«أنا والأب واحد»، «أنا الطريق، والحقيقة، والحياة. لا أحد يأتي إلى الأب ولكن لي»، كلّها في الإنجيل الرابع، إنجيل يوحنّا، ومن المتّفق عليه على نطاق واسع أنّها لا يمكن أن تنسب إلى يسوع التاريخي، ولكنّ الكلمات وضعت في فمه من قبل الكاتب المسيحي في نهاية القرن الأول، بعد سبعين أو نحو ذلك من السنوات من بعد وقت يسوع، وتعبيرا عن الإيمان النامي للكنيسة في ذلك الوقت.

ليس هناك سبب لماذا يجب أن تكونوا على دراية بأسماء علماء الكتاب المقدس المسيحي المعاصر، ولكن اسمحوا لي أن أقتبس بإيجاز جدّا عددا قليلا من أقوالهم. الذين سأقتبس منهم مؤمنون شخصيا بالعقيدة الأرثوذكسية: التجسّد. ولكن مع ذلك لا يعتقدون أنّ يسوع نفسه كان على علم بها. وفي إشارة إلى أقوال الأناجيل الأربعة التي ذكرتها للتوّ، كتب أحد علماء العهد الجديد المحافظين في بريطانيا، الأستاذ تشارلز مولي من جامعة كامبريدج، «[أيّ أحد يؤكّد على عقيدة لاهوت يسوع] معتمدا على صحّة الادعاءات المزعومة ليسوع عن نفسه، وخاصة في الإنجيل الرابع، ستكون بالتأكيد غير مؤكّدة/ثابتة» (أصل المسيحولوجيا، 1977، 136). ثمّ كتب رئيس أساقفة كانتربري (Canterbury) السابق مايكل رامزي (Michael Ramsey)، الذي كان أيضا عالما جديدا في العهد الجديد، بصراحة تامّة: «لم يدّع يسوع الألوهية لنفسه» (يسوع والمعيشة السابقة، 1980، 39). يقول البروفسور جيمس دان من جامعة دورهام، أحد أبرز علماء العهد الجديد المحافظين في بريطانيا اليوم، أنّه "لم يكن هناك دليل حقيقي في أقدم تقليد ليسوع لما يمكن أن يسمّى بوعي الوحي" (المسيحيلوجيا في طور التكوين، 1980، 60). في الواقع في أقرب إنجيل، وهو إنجيل مرقس، يسوع يقول: "لماذا تدعوني بالجيّد؟ لا أحد جيّد ولكن الله وحده" (مرقس 10: 18).

نأتي الآن إلى مصطلح "ابن الله". ومرّة أخرى، ألقت التعاليم التاريخية الحديثة ضوءًا مهما. ونحن نعلم الآن أنّ مصطلح "ابن الله" كان استعارة مألوفة داخل اليهودية. كانت إسرائيل ككلّ تسمى ابن الله، وكان آدم يسمّى ابن الله، والملائكة أبناء الله، والملوك العبريّون القدماء كانوا يتوجون باسم ابن الله. ولدينا في العهد القديم صيغة التتويج: "أنت ابني. هذا اليوم كنت قد ولدت لكم (مزمور 2: 7). والواقع أنّ أيّ يهودي تقيّ جدّاً يمكن أن يسمّى ابن الله، بمعنى شخص قريب من الله، يفعل إرادة الآلهة، ربّما مع مهمّة خاصة من الله. ولكن داخل اليهودية كان هذا بوضوح استعارة استخدمها يسوع نفسه بهذه الطريقة عندما قال لنا أن نغفر لأعدائنا "حتّى تكونوا أبناء أبيكم الذي في السماوات" (متّى 5: 45). مرّة أخرى، في الصلاة التي علّمها نتعامل مع الله على أنّه «أبانا الذي هو في السماء»، بهذا المعنى المجازي يمكننا جميعا أن نتحدّث عن الله كأبينا. ولكن ما حدث في الفترة ما بين حياة يسوع والتطوّر الكامل للعقيدة الثالوثية، هو أنّ ابن الله مجازا قد تحوّل في التفكير المسيحي إلى الله الميتافيزيقي الابن، الأقنوم الثاني من الثالوث الإلهي. هذا التطوّر هو موضع شك من قبل عدد من المفكّرين المسيحيّين اليوم.

في وقت مبكّر جدّا بدأت الكنيسة تقسيما قريبا من المسيحية اليهودية الأصلية التي مقرّها في القدس، والتي استمرت لفترة من الوقت كحركة جديدة داخل اليهودية، ورؤية يسوع كإنسان مع الدعوة الإلهية الخاصة، ومن ناحية أخرى فإنّ تعاليم بولس طوّرت حركة يسوع إلى ما هو أبعد من اليهودية في العالم الهلنستي وتعالى يسوع إلى وضع إلهي. ومنذ ذلك الحين أصبح لاهوت المسيحية المهيمنة قد تمّ في المصطلحات الهلنستية. لكنّ المؤرخ المسيحي العظيم أدولف فون هارناك، يليه آخرون، قد جادل بأنّ حركة يسوع اليهودية استمرت في تزايد من الشرق، إلى سوريا وربما إلى حدود الجزيرة العربية، وأفكارها معروفة على نطاق أوسع، وأنّ صورة يسوع كخادم عظيم لله قد عرف في الجزيرة العربية في زمن نبي الإسلام. هذا أمر غير مؤكّد، وموضوع نقاش بين المؤرخين، ولكن فهم يسوع داخل المسيحية اليهودية كانت مشابهة جدا لصورته في القرآن، لدرجة أنّ البعض قد تكهّن بأنّ معرفة النبي نفسه عن يسوع قد تأتي من هذا المصدر.

إنّ فهمي الخاص لليسوع كإنسان بدلا من أن يكون الله متجسدا (أو كثاني أقنوم من ثالوث إلهي متجسّد) يختلف عن الفهم القرآني له في نقطتين فقط: إحداهما هو مذهب تصوّر الميلاد العذري ليسوع من قبل مريم. قرأنا في القرآن قالت [مريم]: «قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كذلك اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ» (2: 47)، وهذا مشابه للقصّة في إنجيل متّى: «عندما كانت ولدته مريم كانت مخطوبة» (متّى 1: 18)، ومرّة أخرى في إنجيل لوقا (لوقا 1: 25)، ولكن في العهد الجديد ككل القصة لديها أساس ضعيف، التي تحدّث عنها فقط في هذين الإنجيلين في وقت متأخّر نسبيا، ثمانين سنة أو أكثر بعد الحدث، ويبدو أنّه في الغالب غير معروف للآخرين، في وقت سابق من كتاب العهد الجديد. ولهذا السبب،

جنبا إلى جنب مع حقيقة أنّ معجزة قصص العذرية تنسب إلى جمع من الشخصيات العظيمة في العالم القديم - على سبيل المثال، بوذا وزرادشت، وشخصيات مختلفة في الدين اليوناني والروماني - العديد من علماء العهد الجديد يشكّكون اليوم في تاريخيّتها وبُعدها. أنا نفسي لا أؤكّد مفهوم الميلاد العذري ليسوع.

النقطة الأخرى التي أختلف فيها عن التقرير القرآني عن يسوع هو في صلبه. كما تعلمون، يقول القرآن إنّهم «وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ» (النساء 4: 157، أو 155 على ترتيب مختلف من النصّ). والسبب في ذلك، أفترض، هو فكرة أنّ خادم ورسول الله لا يمكن أن يقتل بأيد البشرية. إذا كان لي أن أجري مناقشة غير جدلية حول هذا، أودّ أن أشير إلى أنّنا في القرآن نقرأ (آل عمران: 144)، «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ». ألا يمكن تطبيق هذا المبدأ نفسه على يسوع؟ تاريخيا من الصعب جدّا أن نعارض الآية القرآنية، لأنّه من المفترض أنّه لن يكون من الممكن للمراقبين في ذلك الوقت أن يقولوا الفرق بين يسوع المصلوب وظهره الوحيد المصلوب. ما لم يقترح هو أنّ شخصا آخر كان قد صلب في مكانه. ولكن أيّ دليل تاريخي على وجوده، سواء في العهد الجديد أو في المراجع الرومانية غير المسيحية (جوزيفوس وتاسيتوس)، يشير إلى أنّه قد تمّ إعدامه بالفعل من قبل الرومان، الذين كانوا فاعلين جدّا. وهناك العديد من المسيحيين الأرثوذكس، كانوا يعتقدون أنّ وفاة يسوع كانت ضرورية كتكفير عن الخطيئة البشرية، وأنّ قيامته أظهرت ألوهيّته، فهذه مسألة حيوية. ولكن لأنّني، مع العديد من علماء المسيحيين اليوم، لا أرى أنّ قيامة يسوع كانت حدثا جسديا، أو أنّ وفاته كانت تكفيرا ضروريا للخطيئة البشرية، سواء مات على الصليب أم لا فهذه ليست قضية لاهوتية حيوية، على الرغم من أنّه على سبيل الأدلة التاريخية، وكما أعتقد، أنّه في الواقع قد مات.

لكنّني لا أرفض فكرة التجسّد الإلهي بكلّ معانيها الممكنة. إنّ المعنى الذي أستخدمه هو معناها المجازي. في اللغة الإنجليزية نحن غالبا ما نستخدم كلمة «المتجسّد» كتعبير. قد نقول، على سبيل المثال، أنّ ونستون تشرشل تجسُّدٌ للإرادة البريطانية لمقاومة هتلر في عام 1940 - بمعنى أنّه تجسّدها، وأنّه تمّ التعبير عنها بطريقة مثالية. في هذا المعنى المجازي، كلّما كان إنسان ينفّذ إرادة الله في العالم يمكننا أن نقول إنّه في هذا العمل يصبح متجسّدا، أو مجسّدا، على وجه الأرض. وأنا أعلم أنّ كلمة «التجسيد» غريبة عن الخطاب الإسلامي، ولكن أودّ أن أقرّب الفكرة أنّ المفهوم هو أنّ إرادة الله قد تجسّدت في الأعمال الإنسانية. ويشمل الخطاب الإسلامي هذه الاستعارات مثل «روح الله»، مشيرا إلى يسوع، و«دم الله»، مشيرا إلى الإمام الشيعي الثالث؛ وفي القرآن نفسه هناك مصطلح مجازي «يد الله». بعض المسيحيين اليوم، على الرغم من كونهم أقلّية داخل المجتمع اللاهوتي، استخدموا مصطلح «التجسّد» في هذه الطريقة المجازية نفسها. في الواقع واحدة من كتبي الخاصة، والتي الآن في مرحلة النشر يسمّى «مجاز الله المتجسّد».

هناك فرق لاهوتي مهمّ آخر بين الإسلام والمسيحية الأرثوذكسية، هي العقيدة اليهودية - المسيحية للسقوط البدائي للإنسانية، ممّا أدّى إلى «الخطيئة الأصلية» التي يحتاج إليها الفداء من المسيح، مقابل الاعتقاد الإسلامي بأنّنا مخلوقات ضعيفة وقابلة للانقراض، نحتاج إلى مغفرة الله، والتي تأتي بحتة بنعمة الله. ولكن ليس كل المسيحيّين اليوم يؤكّدون الخطيئة الأصلية والحاجة إلى التكفير. أنا نفسي، جنبا إلى جنب مع العديد من الآخرين، وبعد المفكّر المسيحي المبكّر إيريناوس بدلا من أوغسطين، نرى أنّ البشرية خُلقت ضعيفة وغير ناضجة ولكنّها قادرة على النموّ من خلال تجربتنا في الحياة في هذا العالم نحو الكائنات التي يقصدها الله في نهاية المطاف.

أخيرا، وبما أنّني قد تحدّثت بالفعل لفترة طويلة بما فيه الكفاية، فهناك أشكال من الإسلام والمسيحية التي هي غير متوافقة. وهناك أيضا أشكال من الإسلام والمسيحية مختلفة ولكنّها ليست متعارضة، وهي يمكن أن تكون موجودة جنبا إلى جنب في سلام وفي إثراء متبادل. كان عملي الخاص كعالم لاهوتي مسيحيّ ضمن حركة الإصلاح في المسيحية المعاصرة. كما هو الحال داخل الإسلام، وهذا هو في الوقت الحاضر موقف أقلّية، قد لقي معارضة شديدة من قبل الفاتيكان في روما ومن قبل الإنجيليّين غير الكاثوليك والأصوليّين. ولكنّني أعتقد في قوّة الفكر على المدى الطويل لتحقيق التغيير. وأعتقد أنّ المسيحيّة سوف تتبنّى في الوقت المناسب رؤية نفسها، ليس الإيمان الحقيقي الوحيد، ولكن كواحدة من بين العديد من الأديان الحقيقية، بما فيها اليهودية والإسلام، على الرغم من أنّه سيكون هناك دائما العنصر الأصولي المستمر في الكنيسة التي ترفض هذا الموقف. وأغامر أن أتمنّى أن يكون هناك تطوّر مماثل على المدى الطويل في الإسلام أيضا.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
www.mominoun.com للدراسات والأبحاث

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : +212 537 77 99 54

الفاكس : +212 537 77 88 27

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2018

جميع الحقوق محفوظة © 2018